حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السادس . شهر شوال . ١٤٣٧ هـ / تموز . ٢٠١٦ م

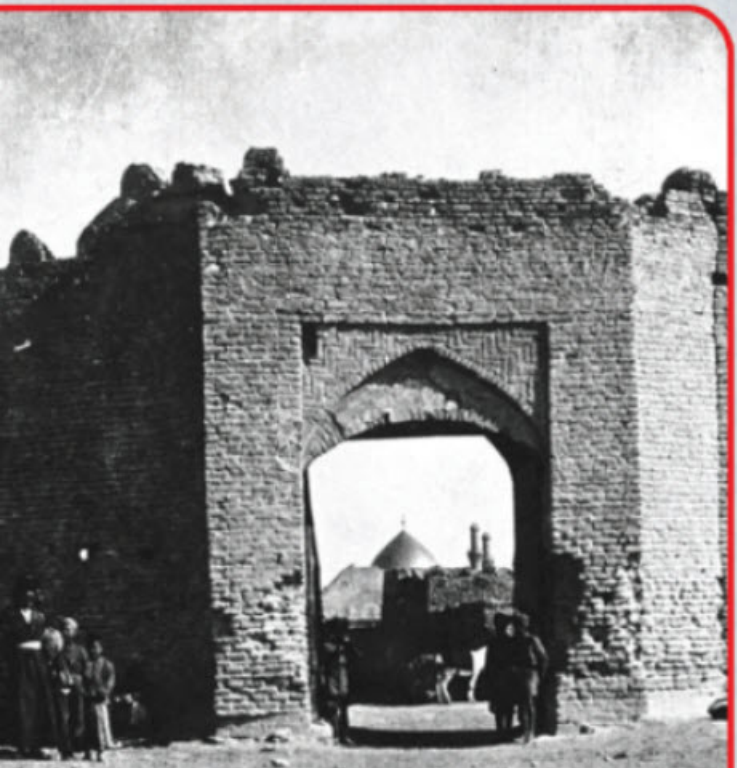

عدد ممتاز

بمناسبة ختام فعاليات عام الامام علي (عليه السلام)

٦

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

رئيس التحرير
د. كامل سلمان
الجبوري

مدينة الكوفة الجغرافية والمجتمع

(دراسة تاريخية)

الشيخ حسن العيساوي

باحث وكاتب إسلامي

ماجستير من جامعة المصطفى(ﷺ)

المقدمة

تُعد مدينة الكوفة من أهمّ المدن العربية والإسلامية، لما لها من مكانة دينية وموقع جغرافي مهم، بالإضافة إلى الوقائع المهمة التي توالت على أرضها. وقد لعبت هذه المدينة دوراً مهماً في صياغة كثير من الأحداث، ناهيك عن أثرها في تبلور كثير من المسارات العلمية والثقافية.

وفي هذا المقال نسلط الأضواء على تلك المدينة من ناحية جغرافية، وتركيبة مجتمعها وواقعها السياسي ضمن ثلاثة محاور.

المحور الأول

جغرافية مدينة الكوفة ومعالمها

لا شك في أنّ الكوفة مدينة عريقة، وقد وقعت فيها أحداث وتقلبّات كثيرة، فلا نستطيع أن نلمّ بجوانبها المختلفة هنا، لذا سنقتصر على بيان أربع جهات تمسّ حاجاتنا إليها في هذا البحث، وهي:

1- تسمية الكوفة وتأسيسها

اختلفت الأقوال في تسمية الكوفة، وقد ذُكرت آراء متعددة في هذا المجال، فالزبيدي يقول: «**الكوفة -بالضم- الرملة المجتمعة... مدينة العراق الكبرى وهي قُبة الإسلام ودار هجرة المسلمين**»[1]، وقيل: إنّها الرملة الحمراء، وقيل: هي الرملة[2].

(1) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج12، ص469، مادة كوف.

(2) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح: ص299.

ونقل ابن منظور عن ابن سيدة:« **الكوفة بلد سُمّيت بذلك، لأنّ سعداً لمّا أراد أن يبني الكوفة ارتاد لهم وقال: تكوفوا في هذا المكان. أي: اجتمعوا فيه، وقال المفضل: إنّما قالوا: كوفوا هذا الرمل. أي نحُّوه وازلوا، ومنه سُميت الكوفة**»[3].

وقال الكسائي:«**كانت الكوفة تُدعى كوفان**»[4]. وفيها قال أبو نؤاس:

ذهبت بنا كوفان مذهبها

وعدمت عن ظرفائها خيرا[5]

«ويقال لها أيضاً: كوفة الجند. لأنّه اختطت فيها خطط العرب أيام عثمان، وفي العباب أيام عمر خططها السائب بن الأقرع بن عوف الثقفي، وفي هذه التسمية قال عبدة بن الطيب العبشي:

إنّ التي ضربت بيتاً مهاجرة

بكوفة الجند غالت ودّها غول[6]

وأما تأسيسها: فالكوفة لم تُعرف كمدينة مسكونة إلّا في الفتوحات الإسلاميّة، لأنّها كانت أرضاً سهليّة تصلح للزراعة، لخصوبة أرضها وقربها من نهر الفرات، حيث تقع على الضفة اليمنى منه في سهل يُدعى سورستان، من الاسم الفارسي شورستان، والتي تعني الصحراء[7].

وكانت العرب تُسمي هذه الأرض أرض السواد، وهي تشمل الكوفة وباقي أرض العراق السهليّة التي فتحها

(3) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج9، ص311، مادة كوف.

(4) المصدر السابق.

(5) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج12، ص469، مادة كوف.

(6) المصدر السابق.

(7) أُنظر: المسعودي، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف: ص177.

المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، وسمّوه سواداً لسواده بالزرع والأشجار، لأنّه حين تاخم جزيرة العرب- التي لا زرع فيها ولا شجر-فكانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع من الأشجار وهم يجمعون بين الخضرة والسواد في الأسامي، كما قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب وكان أسود اللون:

وأنا الأخضر مَن يعرفني

أخضر الجلدة من نسل العرب

فسمّو خضرة العراق سواداً، وسُمّي عراقاً لا ستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض، والعراق في كلام العرب هو الاستواء، قال الشاعر:

سقتم إلى الحقّ لهم وساقوا

سياق مَن ليس له عراق

وكانت الكوفة بزراعتها الغنيّة أيام الأمويين مصدراً لهم في زيادة أموالهم.

وعندما استولوا على السلطة، جنى عبيد الله بن زياد خراج السواد فكان مائة ألف ألف وخمسة وثلاثون ألف ألف درهم[1].

2- بناء الكوفة واستيطانها

بعد انتصار الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية الشهيرة لاحظ عمر بن الخطاب أنّ أفراد الجيش في المدائن قد تغيَّرت ألوانهم، ورأى ذلك في وجوه وفودهم، فقالوا:«**وخومة البلاد غيرتنا**»[2].

ويبدوا أنّ عمر بن الخطاب استفسر عن سبب هذا التغيير في التعب الجسدي للجنود من سعد بن أبي وقاص فأجابه الأخير:« **غيَّرتهم وخومة البلاد، والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها. فكتب إليه يبعث سلمان وحذيفة...**»[3].

واختار مدينة الكوفة لتكون مركزاً للفتوحات الإسلاميّة فيما بعد، وقد وقع الاختيار عليها لسببين:

الأول: جوّها المناسب لسكنى العرب من جهة الغرب حيث نقاوة الهواء ومسرح الإبل، وتمتاز من جهة الشرق بقربها من نهر الفرات الذي يشكل مانعاً بوجه الغزاة، بالإضافة إلى الاستفادة منه في إرواء الأراضي الزراعية القريبة منه، أو بشق الأنهار والجداول لسقي المناطق البعيدة[4].

(1) أُنظر: الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة: ص288.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون: ج2، ص550.

(3) المصدر السابق: ج2، ص550.

(4) الجنابي، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة: ص57.

الثاني: موقعها الجغرافي الذي يساهم في فرض السيطرة على طول منطقة الفرات من الناحية الحربية[5].

وقد استغل ابن زياد هذا الموقع فجعل الدوريات العسكرية من الكوفة إلى باقي مناطق العراق والحجاز لمنع أيّ شخص من الالتحاق بمعسكر الإمام الحسين(عليه السلام).

وفي سنة سبع عشرة للهجرة تحرّك الجيش الإسلامي من المدائن قاصداً الكوفة، لتكون هذه السنة بداية تمصير المدينة وإعمارها.

وبدأت القبائل العربية-والتي تشكّل الجيش الإسلامي في ذلك الوقت-ببناء بيوتها من القصب حسب أوامر عمر بن الخطاب، الذي كان لا يريد لهذا الجيش الاستقرار في المدن خوفاً من تركهم الجهاد، فلم يسمح لهم بالبناء باللبن[6]، إلّا بعد الحريق الذي وقع في الكوفة ليسمح بعدها لأفراد الجيش البناء باللبن، ولكن شرط عليهم ان لا يزيد كلّ مقاتل عن ثلاث غرف في داره[7].

ولمّا وصلت القبائل العربية إلى الكوفة «كان عدد أهل اليمن منها أثني عشر ألف نسمة، وأهل نزار ثمانية آلاف نسمة»[8]. فجعل سعد بن أبي وقاص القرعةَ بينهم، فكانت الجهة الشرقية من المسجد لأهل اليمن، وهي أفضل لهم، لأنّها قريبة من النهر وهم مشهورون بالزراعة، فتلاءمت هذه الجهة مع رغباتهم، وأمّا نزار فكانت لهم الجهة الغربية من المسجد.

ونزل أيضاً جماعة من الفرس في الجهة الغربية، وهم من حرس الشرف لكسرى ويدعون (جند شها نشاه) التحقوا مع جيش سعد عندما انهزم رستم في القادسية وشاركوا معه في فتح جلولاء «وأنزلهم سعد حيث اختاروا، وفرض لهم العطاء، وتحالفوا مع زهرة بن حوية، وكان لهم نقيب يُقال له: ديلم. فقيل: حمراء ديلم، لأنّ العرب تُسمي العجم الحمراء»[9].

3- أحياء الكوفة وأسواقها:

التخطيط الداخلي:

كان تخطيط الكوفة في بداية الأمر تخطيطاً بدائياً، لكنه تميّز ببعض المميزات، إذ لم يكن عشوائياً، بل وُضع وفق خطة خاصة، فحينما «تمّ تمصير الكوفة شُقّت فيها شوارع سكك،

(5) المصدر السابق: ص47.

(6) اللبن: جمع لبنة، التي يُبْنَى بها، وهي المضروب من الطين مربعاً. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج13، ص375، مادة لبن.

(7) أُنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون: ج2، ص550.

(8) البلاذري، أحمد بن يحي، فتوح البلدان: ج2، ص338.

(9) المصدر السابق: ص276.

وكان عرض السكّة خمسين ذراعاً، وكانت السكّة تُنوَّر أثناء الليل بالمشاعل، وقد وصل إلينا أسماء السكك: سكة البريد، وسكّة العلاء، وسكّة بني محرز، وسكّة شبث، وسكّة عميرة، وسكّة دار الروميين من قصر الإمارة.. وكانت تُعرف بأسماء الأعلام والتجّار من قبيل عنترة الحجام»[1].

وأما الأزقّة، فكان عرضها سبعة أذرع، وأمّا المنهج - وهو الحد الفاصل بين صفوف الخيام الواقعة في خطط القبائل - فكان أربعين ذراعاً والفاصلة بين القطائع ستّون زراعاً، فكانت المناهج خمسة عشر منهجاً، في شمال المسجد خمسة، وفي جنوبه أربعة، وفي شرقه ثلاثة، وفي غربه ثلاثة[2].

أحياء الكوفة:

يحدثنا التاريخ عن جملة من الأحياء التي اشتُهرت في تاريخ الكوفة، نذكر منها ما يأتي:

1- دور بني جبلة:

وهي محلّة تقع في الجزء الشمالي الغربي من المسجد في قبيلة كندة، وإليها التجأ مسلم(عليه السلام) عندما بقي وحيداً وأراد الخروج من الكوفة، فذهب ووقف على دار طوعة، وكانت واقفة على باب بيتها فسقته وأدخلته بيتها حتى الصباح، عندها هجم عليه عسكر ابن زياد بقيادة ابن الأشعث بعد أن أخبرهم أبنُها بلال بوجوده[3]. فكانت المواجهة المسلّحة بين مسلم(عليه السلام) والعسكر، والتي انتهت بأسر مسلم(عليه السلام).

2- دار الروميين:

هي مزبلة لأهل الكوفة ومكان النفايات والأوساخ حتى استقطعها عنبسة بن سعيد بن يزيد بن عبد الملك، وكان خلفها باب لدار الإمارة تُدعى بإسمها، ومنها دخل الأشراف والأعوان من أهل الكوفة لنصرة ابن زياد عندما حاصر مسلم بن عقيل(عليه السلام) قصر الإمارة وقد ساهم دخولهم في تقوية معنويات ابن زياد ودعمه في محاربة مسلم(عليه السلام).

3- السبخة:

وهي منطقة في الكوفة تقع في الجهة الشرقية من المسجد، وفيها صُلبت جثث جماعة من أصحاب مسلم(عليه السلام).

أسواق الكوفة:

عند استقرار الناس في الكوفة خُطّت الأسواق لهم، لتنظيم حياتهم الاقتصادية وتنشيط عملية التبادل التجاري فيما بينهم من جهة، وبين أهل الكوفة والبدو الذين يقصدون الكوفة لشراء ما يحتاجونه منها من جهة أُخرى. وقد ازدهرت الكوفة بالصناعات اليدوية، لأنّ المهاجرين إليها هم من سكان مدن الجزيرة العربية واليمن، وقد حملوا معهم صناعاتهم وحرفهم.

وقد خُطّت الأسواق بالقرب من القصر، ولكن سعد بن أبي وقاص كان يغلق باب القصر ويأمر الناس بالسكوت حتى لا تصل غوغاؤهم إليه، وتؤثر عليه، لذلك كانوا يقولون: إنّ سعد بن أبي وقاص قال: «سكن عنّي الصويتُ»[4].

ثمّ خطت بعد ذلك من المسجد والقصر إلى دار الوليد بن عقبة من جهة، وإلى القلائين من جهة إلى القلائين من جهة أُخرى، وإلى منازل ثقيف من جهة ثالثة[5].

وكانت الأسواق في بادئ أمرها لا بناء فيها سوى ظلال بواري من الحصير كان يضعها الباعة لتظللهم في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء، وكان نظام الأسواق على سنّة المسجد، فمَن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه[6]. وظلّت كذلك حتى زمن ابن زياد الذي أمر بتسقيف هذه الأسواق وبنائها[7].

وفي هذه الأسواق مرّت سبايا الحسين(عليه السلام) يتقدَّمهم الإمام زين العابدين(عليه السلام)، وقد ازدحم أهل الكوفة فيها يتفرّجون عليهم وهم بين باكٍ وشامت.

ومن تلك الأسواق ما يُعرف بـ(سوق الغنم) الذي يقع في الجانب الشرقي للكناسة (والكناسة هي مزبلة لبني أسد) وهنا قُتل هانئ بن عروة رضوان الله تعالى عليه وهو ينادي قبيلته، فلم يتقدَّم أحد منها لنصرته أو تخليصه من شرطة ابن زياد، مع أنّ سوق الغنم كان على تخوم محلّة مذحج، ولكن الخوف والجبن منعهم من نصرته حتى أعدم(عليه السلام) وسُحبت جثتُه في شوارع وأزقّة الكوفة.

4- طرق الكوفة

تتميز مدينة الكوفة بوجود طرق متعددة فيها، وقد عُرفت تلك الطرق بأسماء خاصة، نعرض فيما يأتي أهمّ تلك الطُّرُق:

(أ) **طريق الحج إلى مكة والمدينة:** وهو أهمّ الطرق فيها، لذلك فإنّ أهل الكوفة إذا أرادوا الخروج إلى مكّة «خرجوا على جهة القبلة، فتكون أول المنازل لهم القادسية، ثمّ المغشية، ثمّ القرعاء، ثم واقصة، ثم العقبة، ثم الشقوق، ثم بطان، وهذه الأربعة أماكن ديار بني أسد، والعلبية وهي مدينة على سور، والجفر منازل طي، ثمّ إلى مدينة يد، وهي التي بنزلها عمّال

(1) المصدر السابق: 143.
(2) الجناني، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة: ص75.
(3) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد ج2 ص54.
(4) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ج4 ص46.
(5) البراقي، حسن، تاريخ الكوفة: ص161.
(6) أنظر: المصدر السابق: ص86.
(7) أنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ص71.

طريق مكّة وأهلها قيس وأكثرهم بنو عبس والنقرة ومنها يعطف الطريق من أراد المدينة أو أراد أهلها»[1]. وهذا الطريق سلكه الإمام الحسين(عليه السلام) مع أهل بيته في قدومه من مكة قاصداً الكوفة، حتى أعترضه جيش الحرّ بن يزيد الرياحي، فغيّر مسير الركب إلى كربلاء.

(ب)**طريق البصرة**: يتفرّع هذا الطريق من الكوفة والقرعاء، ومنها إلى مارق، ومنها إلى القلع، ثم إلى سلمستان، ثمَّ إلى أقر، ثم إلى الأخاديد، ثمّ إلى عين صيد، ثم إلى عين جمل، ثم إلى البصرة، ومسافة هذا الطريق 85 فرسخاً، وقد سلك هذا الطريق عبيدالله بن زياد عندما توجّه إلى الكوفة، حتى يصل إليها قبل الإمام الحسين(عليه السلام).

(ت)**طريق دمشق**: يتفرّع من الكوفة أيضاً، ومن الحيرة كذلك، واول مرحلة منه إلى القطقطانة، ثمَّ إلى البقعة، إلى الأبيض، ثمّ إلى الحوشي، ثم إلى الجمع، ثمَّ إلى الخطي، ثم إلى الجنة، وإلى القلو في الراوي، إلى ساعدة، ثم إلى البقيعة والأعناك، ثمَّ إلى أذرعات، فالمنزل، فدمشق[2].

(ث)وقد سلكت سبايا الحسين(عليه السلام) هذا الطريق عندما أمر يزيدُ والي الكوفة بإرسالهم إلى دمشق.

(ج)**طريق كربلاء**: يبدأ من الكوفة من ناحية الشمال، ثم النخيلة، ثم كربلاء[3]. وحاول عبيد الله بن زياد إحكام السيطرة على هذا الطريق ليمنع أنصار الحسين(عليه السلام) من أهل الكوفة من الالتحاق بمعسكره والقتال معه في كربلاء.

5- أهم معالم المدينة

حظيت مدينة الكوفة بمنزلة علمية ساهمت في نشر وتطوّر بعض العلوم، ولا زالت آثارها تُدرس في وقتنا الحاضر، حيث يقف النحويون على آراء روّاد هذه المدرسة في دروس اللغة العربية وقراءة القرآن. وفيها أيضاً نشأت مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)، وخاصّة عندما نقل الإمام علي(عليه السلام) عاصمته إليها، فالتفّ حوله أهل الكوفة ينهلون من علمه وبيانه، ليكون منهجاً في دراستهم، فبزغ منهم أكابر العلماء الذين يشهد العدو والصديق بفضلهم، أمثال: ميثم التّمار، ورشيد الهجري، وكُميل بن زياد (رحمهم الله) وغيرهم.

ومن جهة أُخرى، فإن الكوفة من الأماكن التي حظيت بمنزلة خاصة، فعن أبي الحسن موسى بن جعفر(عليه السلام)، عن أبيه(عليه السلام)، عن آبائه، قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): إن الله أختار من البلدان أربعة، فقال الله عز وجل: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** (1) **وَطُورِ سِينِينَ** (2) **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾، فالتين المدينة، والزيتون بيت المقدس، وطور سينين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكة»[4].

وعن الإمام أبي جعفر(عليه السلام)، عن أمير المؤمنين(عليه السلام) «في قوله تعالى:﴿**وَآوَيْنَاهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ**﴾، قال: الربوة الكوفة، والقرار المسجد، والمعين الفرات»[5].

وعن الإمام أبي عبد الله(عليه السلام) في فضل أهل الكوفة، «إن الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار فلم يقبلها إلا أهل الكوفة»[6].

بالإضافة إلى ذلك هناك بعض الأماكن المميّزة في مدينة الكوفة لها أهمية دينية وسياسية، نذكر منها:

مسجد الكوفة:

يظهر من المصادر التاريخية أنّ مسجد الكوفة كانت آثاره باقية عندما دخلها سعد بن أبي وقاص، لذلك لما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً رامياً شديد الرمي، فرمى من المسجد إلى أربع جهات، وحيث سقط سهمه بنى الناس منازلهم، ولما انتهى من تحديد هذه العلامات سمح للناس بالبناء فيها، وترك هذه المساحة بين المسجد ونهاية سقوط السهام فارغة للاستفادة منها في تجميع الجيش، وتجهيزه للغزوات والحروب مع الفُرس أو الروم.

ودلّت الأخبار الكثيرة على أنّ أول من خطَّ مسجد الكوفة هو آدم(عليه السلام)، وانّ مسجد الكوفة ببنائه الحالي قد نقص عن مساحته كثيراً، فقد ذكر الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، والمجلسي في البحار بالإسناد عن الصادق(عليه السلام) أنه قال: «حدُّ مسجد الكوفة آخر السرّاجين خطّه آدم، وأنا أكره أن أدخله راكباً فقيل له: فمَن غيَّره من خطته؟ قال: أمّا أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيَّره أصحاب كسرى والنعمان بن المنذر، ثمّ غيَّره زياد بن أبي سفيان»[7].

وتميّز مسجد الكوفة بموقع سفينة نوح الذي لا زال موجوداً إلى الآن، حيث فار التنور من زاويته، ونُجرت السفينة في وسطه.

---

(1) الجناني، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة: ص48.
(2) أنظر: المصدر السابق.
(3) أنظر: المصدر السابق.
(4) المصدر السابق: ص85.
(5) المصدر السابق: ص85.
(6) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج23، ص281 البراقي، حسين، تاريخ الكوفة: ص59.
(7) الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج1، ص230. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج11، ص332.

فعن الصادق(عليه السلام) أنه قال: «إنّ مسجد الكوفة رابع أربعة مساجد للمسلمين ركعتان أحبّ إليّ من عشرة فيما سواه، ولقد نُجزت سفينة نوح في وسطه، وفار التنور من زاويته، والبركة منه على اثني عشر ميلاً من حيث ما أتيته، ولقد نقص منه أثنا عشر ألف ذراع بما كان على عهدهم»[1].

وفي مسجد الكوفة يتخيَّر المسافر بين القصر والتمام، وذهب أكثر الإمامية إلى ترجيح الإتمام، وخلافه شاذ نادر، وروي عن الصادق(عليه السلام) قال: «من الأمر المذخور إتمام الصلاة في أربعة مواطن: مكّة والمدينة، ومسجد الكوفة، وحائر الحسين(عليه السلام)»[2].

ويُستحب الاعتكاف في مسجد الكوفة، فقد وردت الأخبار عن الأئمة(عليهم السلام) في فضل الاعتكاف فيه، وقد عمل العلماء بهذه السُنّة فكانوا يتعبّدون في هذا المسجد الشريف، وقد سُئل الإمام أبو عبد الله(عليه السلام) عن الاعتكاف، فقال: «لا يصلح إلا في المسجد الحرام، أو مسجد الرسول، أو مسجد الكوفة، أو مسجد جماعة، وتصوم ما دمت معتكفاً»[3].

وأمّا فضل الصلاة فيه، فعن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله(عليه السلام)، قال لي: «أتُصلّي الصلاة كلها في مسجد الكوفة؟ قلت: لا قال: أما لو كنت بحضرته لرجوت أن لا تفوتني فيه صلاة. قال: وتدري ما فضله؟ قلت لا. قال: ما من عبد صالح ولا نبي إلا وقد صلى في مسجد كوفان. حتى أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لما أُسري به قال له جبرائيل(عليه السلام): أتدري أين أنت؟ مقابل مسجد كوفان، فقال: أستأذن ربك حتى أهبط فأصلي فيه. فاستأذن. فإذن له. فهبط فصلى فيه ركعتين. وإن الصلاة المكتوبة فيه تعدل بألف صلاة، وإن النافلة فيه تعدل بخمسمائة صلاة، وإن مقدّمه لروضة من رياض الجنة، وإن ميمنته روضة من رياض الجنة، وإن ميسرته روضة من رياض الجنة، وإن مؤخره روضة من رياض الجنة، وإن الجلوس فيه بغير صلاة ولا ذكر لعبادة، ولو علم الناس ما فيه لأتوه ولو حبواً»[4].

ب) دار الإمارة:

خطط سعد بن أبي وقاص دار الإمارة بجانب مسجد الكوفة ليكون مركزاً لقيادته «وأول ما بناه على شكل ثلاث غرف جعل الباب الرئيسة في باحة القصر، وجعل باباً ثانياً في حائط المسجد لوصله إل المحراب عند الصلاة»[5]. وحينما وصل خبر تحرّك مسلم(عليه السلام) إلى ابن زياد - في الثورة التي كادت أن تُطيح بابن زياد - دخل قصر الإمارة مذعوراً عن طريق باب المحراب، خائفاً من جيش مسلم(عليه السلام) فأحكم غلق الأبواب وحصّن نفسه.

ولّما تعرَّض بيت مال المسلمين للسرقة والنهب أمر سعد بن أبي وقاص ببناء السور لحمايته من اللصوص، ووسع زياد بن أبيه دار الإمارة ليكون بناءً مربّعاً، وأظهرت التقسيمات الأخيرة لدائرة الآثار العراقية أنّ طول دار الإمارة 110،36 متراً وسُمك الجدران 1،80 وفي بعض الأجزاء قد يصل إلى مترين، وقد دعم كلّ ضلع من الجدران الأربعة بأربعة أبراج نصف دائرية لتقويتها، وكانت المسافة بين كلّ برج وآخر 18،30 متراً، وأمّا الأركان فقد قوّيت ببرج مستديرة يبلغ ثلاثة أرباع الدائرة[6]. «وجعلت باب الدار الرئيسية في الجهة الشمالية في وسط الضلع الشمالي لمدخل السور الرئيسي، وبين باب السور وباب دار الإمارة مدخل عرضه 70، 2 متراً ينتهي بقاعة مربعة عليها قبة»[7].

وهي التي جلس فيها عبيد الله بن زياد عندما كان أميراً على الكوفة حيث وُضع له سرير وقد أحاط به الأشراف والحرس وقائد الشرطة و المقرّبون منه وأُدخلت عليه ظعينة الحسين(عليه السلام) بعد انتهاء واقعة الطفّ ومعهم الإمام زين العابدين(عليه السلام) مكبَّلاً بالقيود والأغلال.

وأمّا السور، فإنّ زياداً ابن أبيه أعاد بناءه أيضاً، وقد وسّعه فبلغ عرضه 170متراً وطوله كذلك، وأمّا معدّل سُمك الجدران فأربعة أمتار. ويؤكد أحد المختصّين في علم الآثار أنّ ارتفاع هذا السور يصل إلى عشرين متراً، والذي يرجِّح هذا الاستنباط أنّ أساس هذا السور كان عريضاً مما يظنّ فيه أنّه كان يتّخذ لرفع البناء إلى ما يقرب هذا التحديد.

ومن أعلى هذا السور رُميت جثّة مسلم بن عقيل(عليه السلام)، بعد أن أمر ابن زياد أن يُصعد به إلى أعلى القصر ويُقطع رأسه وتُرمى جثته من فوق السور، ليمنع أصحابه من الدخول لإنقاذه، بالإضافة إلى أن ابن زياد أراد أن ينظر أكبر عدد ممكن من أهل الكوفة إلى إعدام مسلم(عليه السلام) بهذه الطريقة

(1) المشهدي، محمد بن جعفر، فضل الكوفة ومساجدها: ص34.
(2) القمي، جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات: ص430.
(3) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج4، ص177
(4) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص73.
(5) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ص275.
(6) أنظر: الجنابي، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة: ص143.
(7) المصدر السابق: ص139.

الوحشية، ليدخل الخوف والرعب في قلوبهم، ويمتنعوا عن القيام بأي حركة ضده.

***

المحور الثاني

تركيبة الكوفة السكانية

بما أنّ الكوفة مركز مهمّ وحسّاس فقد أصبحت محطَّ أنظار كثير من العرب المسلمين، ولأنها مدينة حيويّة، تتميز بموقع زراعيّ وتجاري آنذاك فاستوطنها كثير من السيّاح والتجار، لذا أصبح مجتمعها متنوعاً.

وما يهمّنا هنا في هذا المحور هو الحديث عن هذا المجتمع بتنوّعه وقبائله وتوزيعه على المدينة، فالكلام يقع في جهتين:

الجهة الأولى: قبائل الكوفة وتوزيعها

كانت قبائل الكوفة مقسّمة إلى عشرة أقسام، ولكن سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب في تعديلهم فكتب إليه أن عدّلهم، فارسل إلى قوم من أنساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم - منهم سعيد بن نمران ومشعلة بن نعيم - فعدّلوهم على الأسباع وجعلوهم أسباعاً[1]. فاصبح التقسيم على النحو التالي:

1- كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم.

2- جديلة: وهم بنو عمرو بن قيس عيلان.

3- قضاعة ومنهم غسان بن شبام، وبجيلة، وخثعم، وكندة، وحضرموت، والأزد.

4- مذحج، وحميرة، وحمدان وحلفاؤهم.

5- تميم، وسائر الرباب، وهوزان.

6- أسد، وغطفان، ومحارب، والنمر، وضحة، وتغلب.

7- إياد، وعكّ وعبد القيس، وأهل هجر، والحمراء[2].

وكان على كلّ قسم من هذه الأسباع أمير وحامل راية تميّز القبائل في القسم الواحد، وكانت الدولة تمدّ الأمير بما يحتاجه من أموال وأرزاق ليوزعها على أفراد القبائل الذين تحت إمرته.

وقد وُزِّعت القبائل للسكن في الكوفة وفقاً للتخطيط الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وأمره بالعمل به، فأصبح توزيع القبائل كالأتي:

1- شمال المسجد: المنهج 1و2 لقبيلتي سليم وثقيف، والمنهج 3 لهمدان والمنهج 4 لبيجلة، والمنهج 5 لتميم وتغلب.

2- جنوب المسجد: خصص المنهج 10 للأنصار ومزينة، والمنهج 11 لتميم ومحارب، والمنهج 12 لأسد وعامر.

3- شرق المسجد: خصص المنهج 13 لبجالة وبجلية، والمنهج 14 لجديلة واللفيف، والمنهج 15 لجهينة واللفيف[3].

إنّ الجيش الإسلامي كان يعتمد اعتماداً مباشراً على هذه القبائل التي يطلب مشاركتها عند إعلان الحرب، وخاصةً في فترة الفتوحات الإسلامية التي انطلقت من الكوفة، وكانت القبيلة تختار رجلاً ليمثلها عند القائد العسكري للجيش الذي يُسمى أميراً، ويكون هذا الشخص المثّل لقبيلته، أشرفهم منزلةً وأوسعهم علماً، وأحسنهم أخلاقاً حتى يتمّ ترشيحه لهذا المنصب المهم.

وقد أعطى الإمام علي(عليه السلام) الحرية في اختيار من يمثل القبائل في جيشه الذي اشترك في الحرب ضد معاوية في معركة صفّين، فكان على رأس الأسباع:

1- سعد بن مسعود الثقفي، على قيس وعبد القيس.

2- معقل بن قيس اليربوع، على غيم وخبة وقريش وكنانة وأسد.

3- مخنف بن سليم، على الأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وخزاعة.

4- حجر بن عدي الكندي، على كندة وحضر موت وقضاعة ومهرة.

5- زيادة بن النظر، على مذحج والأشعريين.

6- سعيد بن قيس بن مرّة الهمداني، على همدان ومن معهم من حمير.

7- عدي بن حاتم الطائي، على طيء ويجمعهم الدعوة مع مذحج، وراية مذحج مع زياد بن النضر، وراية طي مع عدي بن حاتم[4].

وبقي نظام الأسباع في الكوفة حتى عهد زياد بن أبيه الذي تمّ استبداله بنظام الأرباع[5]. وألغى اختيار القبيلة للأفضل الذي يمثلها، واستبداله بمن هو أشدّ ولاءً في القبيلة للحزب الأموي، ومن له نشاط في خدمته، وأن يكون تاريخه معروفاً بذلك، وإن كانت القبيلة لم توافق عليه ممثلاً عنها، بل حتى لو كانت تعاديه وتنبذه.

---

(1) البراقي، حسين بن أحمد، تاريخ الكوفة: ص159.

(2) أنظر: المصدر السابق: ص163.

(3) الجناني، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة: ص78.

(4) أنظر: المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ص118.

(5) أنظر الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج4، ص48.

ولم يهتمّ زياد بن أبيه بالفضائل الأخلاقية والملكات النفسية الكريمة التي يمتلكها الشخص الذي أختاره ليكون مسؤولاً عن كل قسم، فقد جعل على ربع أهل المدينة عمرو بن حريث، وجعل على ربع تميم وهمدان خالد بن عرفطة، وجعل قيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة، وجعل أبا بردة بن أبي موسى على مذحج وأسد[1]. «وقد ساهم هذا التنظيم الجديد في أضعاف القبائل المناوئة للأمويين، وتخفيف حدّة العصبية القبلية وصولاً إلى ممارسة الدولة لسلطتها ومسؤولياتها، في تنظيم الجيوش وترتيب القيادات والسيطرة على توزيع العطاء على المقاتلين»[2].

وفي فترة عبيد الله بن زياد ازدادت سيطرة الأمويين على قبائل الكوفة، لأنّ ابن زياد جعل للعرفاء الصلاحية المطلقة في توزيع الحقوق المالية والأرزاق على حسب ولاء الفرد للأمويين.

وجعل المقاتلة - وهم الجناح العسكري في القبيلة - على اتّصال مباشر بالدولة، بعد أن نظّم السجلات لهم في ديوان الجند، وبهذا التنظيم الدقيق والمتقن من ابن زياد، فقدت القبيلة وزعيمها مراكزها في مقابل أوامر ونواهي الدولة، وخاصّة في النزاعات المسلحة، لأن أفرادها مرتبطون بنظام الجيش المركزي للمدينة ويتعرّضون إلى أقسى العقوبات التي قد تصل إلى عقوبة الإعدام إذا ما خالفوا تعاليم القائد العسكري للمدينة، أو أشتركوا مع القبيلة ضده، وهذا ما حدث مع هانئ بن عروة، وهو كَبير عشيرة مذحج الذي قُتِل ولم يتقدَّم أحدٌ لنصرته خوفاً من عقوبة ابن زياد لهم.

الجهة الثانية: أهم قبائل المدينة

1- قبيلة همدان: من القبائل العربية التي أسلمت على يد الإمام علي(عليه السلام)، في اليمن حيث مكان سكناها، ثمَّ انتقلت مع الجيش الإسلامي إلى المدينة والكوفة وشاركت في حروب الإمام علي(عليه السلام) وخاصّة في حرب صفين، عندما كان عليهم سعيد بن قيس، وقد أبلى بلاءً حسناً، هو وعشيرته حتى جزع منهم معاوية جزعاً لما رأى شدَّة بأسهم وقوتهم، وما لحق بجيشه من هزيمة بسببهم، وقد مدحهم الإمام علي(عليه السلام) بقوله:

لو كنتُ بوّاباً على باب جنةٍ لقلتُ لهمدان أدخلي بسلام[3]

وقد استُشهد عدد من أبطال هذه القبيلة في سبيل نصرة الإمام الحسين(عليه السلام)، أمثال:

1- أبي ثُمامة الصائدي الذي كان يقبض الأموال من الشيعة بأمر من مسلم بن عقيل(عليه السلام) ويشتري بها السلاح، وبعد استشهاد مسلم(عليه السلام) توجّه إلى كربلاء ليشترك مع الإمام الحسين(عليه السلام) حتى استشهد بين يديه، وهو الذي قال له الإمام الحسين(عليه السلام): «لقد ذكرت الصلاة: جعلك الله من المصلين الذاكرين»[4].

2- برير بن خضير المشرقي الهمداني، سيد القرّاء في الكوفة، وقد استُشهد بعد أن ضربه كعب بن جابر الأزدي برمحه.

3- حنظلة بن أسعد الهمداني الكوفي.

4- خالد بن عمرو الصيداوي الهمداني قُتل بعد أبيه.

5- زياد بن عريب الصائدي الهمداني الكوفي.

6- سوار بن أبي عمير الهمداني الكوفي.

7- شؤذب بن عبد الله الهمداني الشاكري الكوفي.

8- عابس بن شبيب الشاكري الهمداني.

9- عبد الرحمن بن عبدالله الأرحبي الهمداني الكوفي[5].

2- قبيلة كندة: من القبائل العربية التي سكنت الكوفة واشتُهرت باسم زعيمها وقائدها الصحابي الجليل حجر بن عدي الكندي، الذي كان من الموالين للإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)، وقد اعترض على سياسة زياد بن أبيه الظالمة حتى حصلت المواجهة بينه وبين الجيش الأموي فاعتقل مع جماعة من أصحابه المخلصين، ثمَّ أرسلهم ابن زياد إلى معاوية لينفّذ حكم الإعدام بهم، وقد شارك في نصرة الإمام الحسين(عليه السلام) من هذه القبيلة الحارث بن امرئ الكندي الكوفي، وأبو الشعثاء الكندي[6].

3- قبيلة مذحج: وهي من القبائل المعروفة، وينسبها أهل الأنساب إلى مذحج بن مالك بن ادد[7]، ويُعتبر مالك الأشتر من شجعان هذه القبيلة واكثرهم وفاءً لأمير المؤمنين(عليه السلام)، إذ إنّه يرجع إلى النخع، والنخع من اكبر بطون بني مذحج[8].

ومنها هانئ بن عروة الذي وقف موقفاً عظيماً في نصرة رسول الحسين(عليه السلام)، عندما أدخله داره وأوفى بعهده في حمايته حتى قُتل دونه، ولم يتعاون مع عبيد الله بن زياد.

---

(1) أنظر: المصدر السابق: ج5، ص139.

(2) فلهاوزن، يوليوس، الدولة العربية: ص120.

(3) المنقري، بن مزاحم، وقعة صفين: ص437.

(4) الزنجاني، وسيلة الدارين في أنصار الحسين(عليه السلام): ص99.

(5) أنظر: المصدر السابق.

(6) أنظر: المصدر السابق: ص99.

(7) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج4، ص242.

(8) ابن الأثير الجزري، علي بن أبي الكرم، اللباب في تهذيب الأنساب: ج3، ص430

4- قبيلة طيء: من القبائل العربية التي عاشت في الجزيرة العربية[1]. ثمّ انتقلت إلى الكوفة مع الجيش الإسلامي، وشارك من هذه القبيلة في نصرة الحسين(عليه السلام) عامر بن حسان الطائي.

المحور الثالث: الصراع السياسي في الكوفة

عندما انتقلت القبائل العربية من مكّة والمدينة إلى الكوفة انتقلت معها وجهات النظر السياسيّة المختلفة في إدارة الأُمّة وقيادتها، الأمر الذي صيّر المجتمع الكوفي أكثر تعقيداً، لذا حينما وصل مسلم(عليه السلام) إلى الكوفة كان هناك اتجاه يرى أن الخلافة تنصيب إلهي منحصر في أهل البيت(عليهم السلام)، بالإضافة إلى وجود حزبين، مما جعل الكوفة تتجاذبها ثلاثة اتجاهات، وهي:

1- الاتجاه الشيعي: ويُمثل هذا الاتجاه شيعة علي(عليه السلام) الذين التزموا بأوامر الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) في بيعة الغدير، وأطاعوا الإمام(عليه السلام)، واتبعوه، دون غيره من الخلفاء واشتركوا في حروبه-الجمل وصفين والنهروان- التي كان لأهل الكوفة فيها دور كبير.

وعندما جعل الإمام علي(عليه السلام) الكوفة عاصمة له، ترسّخت جذور شيعة الكوفة وأخذوا ينهلون من فيض وجوده المبارك وخاصة العلماء والأدباء والمحدّثون، فحفظوا خطبه واستمعوا إلى حديثه، وكانوا يسألونه ويستفسرون منه عن أمور دينهم ودنياهم، وقد نقلوا خُطبّه الشريفة وأحاديثه من جيل إلى آخر وإلى يومنا في كافة شؤون الحياة السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة.

وعندما دخل مسلم الكوفة، نشط زعماء هذا التوجه في توحيد صفوف الشيعة واخذ البيعة منهم لمسلم بن عقيل(عليه السلام)، وقاموا بثورة عندما سُجنَ هانئ بن عروة في دار الإمارة، ولكن ثورتهم فشلت وقُتل قائدهم وسُجن بعض زعمائهم والبعض الآخر التحق بمعسكر الحسين(عليه السلام).

2- الحزب الأموي: وهو الحزب الذي أنشأه عثمان بن عفان في المدينة إبّان خلافته، عندما دعم بني أمية بشكل مطلق، ومدّهم بالأموال، وثبّت نفوذهم في البلدان الإسلاميّة عندما عيَّنهم أمراء عليها، وكان معاوية بن أبي سفيان من أنشط أعضاء هذا الحزب إذ نجح في نشره في بلاد الشام، وثبّت في نفس الوقت مكانته بين الناس، كي يتمكن من زيادة أنصاره وأعوانه، ليتحدّى بهم الدولة الإسلامية المركزية، ويرفض قرار عزله عن بلاد الشام، ويجنِّد أفراد الحزب الموالين له لشنّ حرب ضد الإمام علي(عليه السلام) الخليفة الشرعي، ويطلب الخلافة لنفسه.

واستطاع بحيله الباطلة أن يكسب لحزبه شخصيات مهمّة من أهل الكوفة، إضافة إلى عامة الناس بعد أن أغراهم بالأموال، أمثال شريح القاضي، والأشعث بن القيس، وغيرهما مَّمن كان له دور وتأثير كبير في إيقاف معركة صفَّين وإجبار الإمام(عليه السلام) على الصلح.

وبعد صلح الإمام الحسن(عليه السلام) أدرك معاوية عظمة مدينة الكوفة فكرياً، حيث العلماء والفقهاء بحلقاتهم العلمية في مسجد الكوفة، واقتصادياً لوجود الأراضي الزراعية الخصبة التي تشكل مورداً مالياً ضخماً للخلافة، والتي يهتمّ بها معاوية كثيراً، لأنّها تشكّل العمود الفقري لسياسة حزبه.

لذا، ولأجل السيطرة على الواقع الكوفي عُيِّن زيادُ ابن أبيه - المعروف بظلمه وغطرسته وعدائه الشديد للإمام علي(عليه السلام) - والياً عليهم، وأمره معاوية بأن يسبَّ الإمام علياً(عليه السلام) على المنابر، فكان الخطيب الأموي يفتتح خطبة الجمعة بسبٍّ ولعن الإمام(عليه السلام). وبذلك أصبحت فترة ولاية زياد بن أبيه من أشدّ السنين ظلماً على شيعة الكوفة، حيث القتل والسجن والتعذيب لكلِّ معارض أو مخالف للحزب الأموي، والترغيب والتشويق بالأموال لكلَّ من ينضم ويرتبط بالحزب الأموي.

ولّما دخل مسلم(عليه السلام) الكوفة كان الحزب الأموي قد مرّت عليه عشرون سنة في السلطة، فالأجهزة الأمنيّة والعسكريّة والاقتصاديّة وتنظيم الحياة الاجتماعية كلّها تحت نفوذ هذا الحزب وأعضائه.

وقد تمسّكت بعض الشخصيات المنتفعة ببقاء مدينة الكوفة تحت سيطرة الأمويين ومنعت انتقالها إلى الشيعة والموالين لأهل البيت(عليهم السلام)، لذلك كتبوا إلى يزيد بن معاوية(عليه اللعنة) في الشام عندما شعروا بأنّ النعمان ضعيف أو يتضاعف خوفاً من فقدان الحزب الأموي سيطرته على هذه المدينة، وبالتالي تتعرَّض مصالحهم للخطر وبمساعدة هؤلاء استطاع عبيد الله بن زياد أن يجهِّز جيشاً من أهل الكوفة لمحاربة الحسين(عليه السلام).

3- حزب الخوارج: وهو الحزب الذي عُرف بعد انتهاء واقعة صفين عندما انشقَ أفراد هذا الحزب عن جيش الإمام علي(عليه السلام) واعترضوا عليه، لأنّه رضي بالتحكيم، وقد حاججهم الإمام علي(عليه السلام)، فرجع قسم كبير منهم، وقاتل(عليه السلام) القسم الأخر فما بقي منهم إلا عدد قليل.

ولكن حزبهم ظهر من جديد في عهد معاوية، فخرجوا على الدولة الأموية هذه المرّة فحاربهم زياد بن أبيه، وفي واقعة

(1) قبيلة طيء: ص7. وأنظر: عمر كحالة/ معجم القبائل العربية: ج2، ص688.

كربلاء اشتركوا مع جيش عمر بن سعد لمحاربة الحسين(عليه السلام) انتقاماً من أبيه(عليه السلام).

***